الحياة والماديون والروحيون

أنشأ الاستاذ غراهم لُسك الاميركي مدرس علم الفسيولوجيا في مدرسة بيل الطبيَّة مقالة رنانة في الحياة وما يراهُ فيها الماديون وما يراهُ الروحيون فاجاد وافاد حيث اورد الحقائق على وجهٍ يطابق ما اقرَّ عليهِ الاوَّلون ويدل على صحة ما يقولهُ الآخرون فاخترنا تلخيصها في هذه المقالة افادةً للذين يطلبون التوسع في امثال هذه المباحث ويحبون ان يحيطوا بها علمًا من وجوهها

قال ارسطو ان كل ما في العالم مادَّة متكيفة باربع كيفيات او متصفة باربع صفات البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة فاذا اتصفت بالبرودة واليبوسة فهي التراب. او بالبرودة والرطوبة فهي الماء. او بالحرارة والرطوبة فهي الهواء. او بالحرارة واليبوسة فهي النار. فالاجسام كلها من مادة واحدة وانما يختلف بعضها عن بعض بقدر ما فيهِ من تلك الكيفيات او الصفات. وذهب ارسطو وغيرهُ من المتقدمين الى امكان انفصال هذه الصفات عن المادَّة ومفارقتها لها. وزعم الكيماويون قديمًا انهم اذا نزعوا صفة من هذه الصفات عن الزئبق او اضافوا اليهِ صفةً ليست فيهِ حوَّلوهُ الى ذهب فغرَّهم زعمهم هذا ازمانًا طوالاً. وعلى ذلك ايضًا زعموا ان الحياة كيفيَّة او قوة تكون في الجسم وهو حيٌّ وتفارقهُ عند موتهِ وسموها بالقوَّة الحيويَّة

فلما قام جالينوس في القرن الثاني بعد المسيح بنى طبهُ على قول ارسطو فذهب الى ان الانسان مادة ذات كيفيات او صفات فاذا صحت نسبة بعضها الى بعض فيهِ حصلت لهُ الصحة واذا اختلت النسبة اعتراهُ المرض. وجعل مدار علاجهِ على استرجاع الكيفيَّة التي فقدت منهُ فاذا اعتلَّ من بردٍ وضعهُ في الماء الحار واذا اصابتهُ الحمى وضعهُ في الماء البارد

وزعم فان هلمنت في اوائل القرن السابع عشر ان في بطن الانسان روحًا اذا اكل وشبع طاب نفسًا واذا لم يجد ما يطيب لهُ ابتلى من هو فيهِ بالالم فاذا لم يترضهُ ولم يطيب خاطرهُ سخط وخرج منهُ مغضبًا فيموت الانسان بخروجهِ منهُ. واغرب من هذا الرأي الغريب ان باراسلسوس تابعهُ عليهِ

اما اليوم فكل ذلك القديم قد تغير ولم يبقَ من يقول ان المادة يمكن ان تجرَّد عن صفاتها العامة او ان تلك الصفات يمكن ان تفارق المادة وتقوم برأسها بل قد اجمعوا على ان صفات المادة العامة لازمة لها ولا انفكاك لها عنها اذ هي من نفس جوهرها وبتوا

آراءهم في العلم على هذه الحقيقة وقد بطل ما زعموهُ من ان الحياة قوة حيويَّة تكون في الجسم وهوحيٌّ وتفارقهُ عندالوفاة اذ الاحياء وغير الاحياء من بيتٍ وجماد مركبة كلها من مواد واحدة خاضعة لنواميس طبيعية ونواميس كيماويَّة واحدة غير ان احوال الواحدة تختلف عن احوال الاخرى فتختلف ظواهرها باختلاف تلك الاحوال

هذا هو الرأي الماديُّ في الحياة وقد اختارهُ العلماء دون غيرهِ لاكتشافات كثيرة حملتهم على اختيارهِ . من ذلك اكتشاف هارفي لدورة الدم سنة ١٦١٦ فقد اثبت ان القلب يدفع الدم الى الشرايين على مبدإ دفع المضخة للماء كما هو معلوم . واكتشاف شيئر اليسوعي لارتسام صور المرئيات على العين فقد اثبت ان العين تفعل فعل الخزانة المظلمة عند المصورين فتجمع بلوريتها صور الاشباح على شبكيتها كما تجمع بلورة الخزانة المظلمة صور الاشباح على الحاجز الذي وراءها . ثم جاء كبلر الشهير فاثبت ان العين آلة بصريَّة من كل وجهٍ يبحثهِ في العوينات . واكتشاف بورلي لكيفيَّة حصول التنفس بمرونة الرئتين وفعل العضلات على الاضلاع على مبدإ فعل القوة على العتلات كما هو معلوم . واكتشاف لافوازيه الكيماوي لكيفيَّة حصول الحرارة الحيوانيَّة من انحلال المركبات الكيماوية العليا في الطعام الذي يقتات بهِ الحيوان كما تحصل حرارة الشمعة المتقدة مثلاً من احتراق المركبات الكيماويَّة التي تتركب الشمعة منها . فاكتشاف هذه الحقائق دلَّ دلالةً واضحة على ان اعضاء الجسم الحي تعمل اعمالها طوعاً للنواميس الطبيعيَّة كالآلات التي لا حياة لها . والذي يتوسع في علم الكيمياء يجد الادلة العديدة على انهُ لا فرق بين الحي وغير الحي في الصفات ولا في النواميس الطبيعيَّة المتسلطة عليهما كليهما فبعض الاحشاء مثلاً يحول النشا الى سكر في البدن والكيماوي يحوّل النشا الى سكر في المعمل الكيماوي كما يحوّل في البدن

وذهب لافوازيه في اوائل هذا القرن الى ان تركيب المركبات الآليَّة لا يتم الاَّ في الجسم الحي اذ لا بدَّ لتركيب هذه المركبات من الحياة او القوة الحيويَّة بخلاف المركبات غير الآليَّة ولذلك تختلف المركبات الآلية اختلافاً جوهريًّا في صفاتها عن غير الآلية . فلم يمضِ على مذهبهِ هذا الاَّ القليل حتى افسدهُ فولَر الكيماوي سنة ١٨٢٨ باكتشافهِ كيفية عمل البوريا في معملهِ . والبوريا مركب آليٌّ كما لا يخفى فتركيبهُ في المعمل الكيمي بلا قوة حيويَّة أقطع دليل على ان المركبات الآلية لا تحتاج الى قوَّة حيوية في تركيبها وبالتالي انها لا تستلزم وجود القوَّة الحيويَّة خلافاً لما ذهب اليهِ لافوازيه . وقد ركَّب

الكيماويون كثيراً من المركبات الآلية بعد ذلك كتركيبهم السكر من الكربون والهيدروجين والاكسجين على نحو ما يركبهُ النبات والحيوان ولا يرتاب احد اليوم انهم لا بدَّ ان يركبوا كل المركبات الآلية التي تركب في اجسام الاحياء من نبات وحيوان على تمادي الزمان

وقال آخرون ان المواد الآلية تختلف في صفاتها عن المواد غير الآلية بدليل كونها اسرع من غير الآلية انحلالاً. فردوا عليهم بان الالبومن من المواد الآلية يبقى السنين الطوال بلا انحلال بخلاف بوديد الفضة الذي يكسو زجاجة المصوّر فانهُ ينحل في النور باسرع من لمح البصر. فلا فرق بين الآلي وغير الآلي والحي والجماد في موادها وصفاتها والباحث يرى لاول وهلة ان الحيَّ معظمهُ ماء والماء غير آلي وانهُ لا يخلو حي من املاح وان الآلي وغير الآلي يحتويان البلورات وقد بلوروا زلال البيض. وبالاجمال فليس بين الآلي وغير الآلي حدّ فاصل جامع لكل انواع الواحد مانع لكل انواع الآخر بل انهما كليهما خاضعان لنواميس طبيعية واحدة والتمييز بينهما وضعيٌّ لا طبيعيٌّ

وخلاصة ما تقدم ان الحي وغير الحي لا يختلفان في موادهما بل في ترتيب تلك المواد. ولا يخفى ان ابسط جسم يتألف الحيّ منهُ هو الحويصلة وعلى فعل الحويصلة تتوقف الحياة وفي الحويصلة اجتمعت الاحوال اللازمة لها. فاذا بحثنا عن ترتيب المواد في الحويصلة وجدناهُ مختلفاً عن ترتيبها في الجماد لان كل الدقائق في قطعة النحاس مثلاً متشابهة متماثلة بخلاف دقائق الحويصلة فانها تختلفة من كل وجه. ووظائف الحويصلة المميزة لها في الجسد حلُّ المواد التي يأتيها الدم بها. وتتركب كل حويصلة من مواد آليَّة وغير آليَّة وهذه المواد مركبة من عناصر بسيطة هي الكربون والهيدروجين والاكسجين والنتروجين والكبريت والفصفور والكلور والصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم والمغنيسيوم والفلور والسليكون والحديد فكل عنصر من هذه العناصر لازم للحياة اذا عدمهُ الجسم الحي كان عدمهُ موتاً لهُ لا محالة

ومعلوم ان كل حي من الاحياء العليا يتألف من حويصلات لا يحصى عددها اما الاحياء الدنيا من حيوان ونبات فقد يكون الحي الواحد منها حويصلة واحدة لا غير ومن هذه الحويصلة الواحدة او هذه الحويصلات المنفردة حصلت الاحياء كلها في العالم على مذهب النشوء والارتقاء. وربَّ قائل يقول ان كانت الحويصلة هي اصل كل الاحياء فما اصل الحويصلة نفسها وكيف حصلت في الابتداء. نقول ان الانسان لم يشاهد حادثة من الحوادث التي حصلت فيها الحويصلة من غير حويصلة وبعبارة اخرى انَّا لم نرَ حيًّا حصل

من غير حي وكل ما قيل عن تولُّد الحي من غير الحي من تلقاء نفسه باطلٌ لا يعول عليه. ومما تقدم يتضح ان اصل الحويصلة غير معلوم بالمشاهدة والتجربة ولذلك فغاية ما يقال عنهُ مبنيٌّ على الفرض والاستدلال . والذي انتهت اليه اقوال العلماء من هذا القبيل هو ان الحويصلة الحيَّة انما حصلت عند استتباب الشروط والاحوال المناسبة لحصولها ولما كانت هذه الشروط والاحوال غير معلومة لنا ولا هي تشاهد الآن فلا بد انها طرأت وتمت في زمن من الازمان الخالية حينما كانت حال الارض على غير ما هي عليه اليوم . فنتج الحي من غير الحي حينئذٍ

اذا ثبت ان الحياة تتوقف على فعل كل حويصلة من الحويصلات وانها هي نتيجة افعال الحويصلات التي يتألف الجسم الحي منها ثبت ان تعيين مقر مخصوص للحياة فيه ضرب من المحال فقد قال قوم ان الدم مقر الحياة في الجسد ولكن الدم انما هو السائل الذي يغذي الجسد . وقال آخرون ان القلب مقرُّ الحياة ولكن القلب انما هو العضو الذي يدفع الدم في الجسد . وقال آخرون ان النخاع المستطيل مقر الحياة ولكن النخاع المستطيل هو محل المركز العصبي الذي يتولى امر التنفس . وقس على ذلك سائر ما قيل عن مقرّ الحياة اذ ليس للحياة مقرٌّ معين من الجسد لانها نتيجة فعل كل عضو من اعضاء الجسد كما تقدَّم

ومما زاد الذاهبين الى وجود القوة الحيوية تمسكًا بمذهبهم هو ان كل حيّ يموت توهمًا منهم ان الموت يستلزم وجود هذه القوَّة وانهُ لا يعلل الَّا على تقدير وجودها . والواقع انهُ يعلل على المذهب المادي اتمَّ تعليل وذلك ان الانحلال ملازم للاجسام على الدوام في الحياة وفي الممات ولا فرق هناك في الحالين الَّا ان الاجزاء المنحلة تعزل عن البدن في الحياة وتبقى فيه في الممات فتسم حويصلاته واحدة فواحدة وتحولها من حال مستوفية لشروط الحياة الى حال غير مستوفية لتلك الشروط ونتيجة ذلك عدم الحياة اي الموت

فيرى القارئ مما مرَّ به ان ما اتصل اليه رجال العلم في بحثهم هو ضد ما اتصل اليه الهندي الاميركي عند رؤيته الساعة لاوَّل مرة فانهُ ظنها جسمًا حيًّا كالحيوان واما رجال العلم فيعدون الحيوان اليوم آلة كالساعة. هذا هو القول المادي في الحياة وقد تابعنا فيه الماديين على تعليلهم ووافقناهم على الحقائق التي يوردونها لاثبات رأيهم في الحياة . ولكن العاقل لا يجاري الذين يصلون الى هذه الغاية ثم يأبون ان ينظروا الى ما بعدها كأن العقل لا يستطيع ان يتصوَّر وجود النفس او الروح وراء ذلك كلهِ والحال ان تصوُّر ذلك ليس باعسر من تصوُّر امور تعرض للعلماء كثيرًا في ابحاثهم كما سيجيء

اما النفس (وهي مرادف الروح في هذه المقالة) فانما يتعرّض العلماء لما عند بحثهم عن فعل القوة العاقلة اي الفكر ففريق يعلل الفكر تعليلاً ماديًا محضًا فيقول ان الفكر نتيجة انحلال المادة او اهتزاز دقائق الدماغ كما ان الصوت والحرارة والنور كلها اهتزاز او تموج في الهواء والاثير . وفريق يعلل الفكر تعليلاً روحيًا فيقول ان الفكر هو اهتزاز في دقائق الدماغ خاضع لسلطة عامل آخر هو النفس او الروح . فالنفس لا يمكنها ان تحدث شيئًا من لا شيء ولا تستطيع ان تحدث الفكر الاَّ من دقائق الدم التي تحلُّ في الدماغ . فهذان هما قولا الماديين والروحيين في النفس على ان الماديين يعترفون ان رأيهم لا يعلّل كل افعال العقل تعليلاً وافيًا بخلاف تعليل الروحيين فانَّا اذا سلمنا بوجود النفس سهل علينا تعليل كل الافعال العقليَّة بها. اما وجود النفس فلم يقم عليهِ برهان علمي يثبتهُ اثباتًا قطعيًا مثل اثبات الاشياء الحسيَّة او الاحكام الرياضيَّة مثلاً ولكن وجودها ثابت باللزوم والاستنتاج كوجود الاثير

وليبان ذلك نقول ان من المادة ما هو ذو ثقل يقبل الوزن ومنها ما لا يقبل الوزن فيقال انهُ بلا ثقل. فلو وضعنا جسمًا تحت قابلة من الزجاج وفرغناها من الهواء تفريغًا تامًا فقد فرَّغناها من الهواء الذي لهُ ثقل ولكنا لم نفرغها من مادة اخرى لا ثقل لها هي الاثير ودليلنا على وجود هذه المادة التي لا ندركها بحواسنا الخمس اننا نرى الجسم الموضوع تحت القابلة بعد تفريغها من الهواء فان رؤيتنا لهُ انما تتم بانتقال امواج النور منهُ على جسم آخر حتى تصل الى اطراف العصب البصري المنتشرة على مؤخر العين وتعرف بالشبكيَّة فتهز دقائقها وينتقل هذا الاهتزاز على دقائق العصب المذكور حتى يصل الى مركز البصر في باطن الدماغ حيث يتم الشعور بالنور ويرى الناظر المرئي . فهذا الجسم الذي تنتقل عليهِ امواج النور هو الاثير والعلماء يستنتجون وجودهُ استنتاجًا كما تقدم ويقولون انهُ مالئ الفضاء كلهُ مع انهم لم يزنوهُ ولا ادركوا وجودهُ بحاسة من حواسهم الخمس. وعليهِ فحجتنا على وجود الاثير انهُ لازم لتعليل امور لا تعلل الاَّ بهِ ولو لم يقم برهان علمي على وجودهِ وهكذا يقال في النفس فانهُ اذا مات الانسان خرجت روحهُ منهُ وبقي الجسد ولكنهُ لا يخسر شيئًا من وزنهِ لان الروح لا تقبل الوزن. وقد قدمنا ان الاثير يتصل بالشبكيَّة اي اطراف العصب البصري فما المانع اذًا من اتصال النفس بالياف الدماغ وحويصلاتهِ حيث يتم التعقل والادراك وما المانع من ان يكون هناك اثير روحي يحيط بالناس من كل جانب كما يحيط الاثير بالاجسام من كل جانب فتنتقل على هذا الاثير

الروحي التأثيرات والكرامات من السموات الى روح الانسان ومنها الى عقله . وهذه التأثيرات والكرامات يشعر بها كثيرون من المتدينين وتشتدُّ فيهم كثيرًا من حين الى حين. وعليهِ نحكم بوجود النفس او الروح لتعليل ما لا يعلل بغيرها كالاثير ولو لم نستطع ان نقيم البرهان العلمي على وجودها كما لا نستطيع ان نقيمهُ على وجودهِ

اذا اتضح ذلك نأخذ في ايضاح غيرهِ مما يقولهُ المؤمنون عن الروح فلا يخفى ان الانسان يدرك كل ما في الخارج بواسطة حواسهِ الخمس فيتسع بها عقلهُ ويزيد ادراكهُ ومن يراقب كيفيَّة ذلك يعلم ان الطفل يولد وهو قد اكتسب من بطن امهِ معرفة بعض الشيء مما يدرك بحاسة اللمس وان هذه المعرفة تزداد فيهِ يومًا فيومًا بعد الولادة بلمسهِ جسدهُ شيئًا فشيئًا ثم انهُ يحصل قوة السمع والبصر والذوق والشم وهذه الحواس الخمس تزيد كل يوم معرفة وتوسع عقلهُ وتثقفهُ ولكنها كلها قاصرة قصورًا عظيمًا فحاسة البصر لا ترى الاَّ جانبًا صغيرًا من الطيف الشمسي ومعظمهُ يخفى عليها فهي لا ترى نصف الاشعة التي تأتينا من الشمس. وحاسة السمع لا تسمع الاَّ اصواتًا محدودة بين حدين من العلو والانخفاض ويفوتها سمع ما فوق الواحد وما دون الآخر من الاصوات التي لا يحصى عددها . وحاستا الشم والذوق قاصرتان جدًّا ايضًا وحاسة اللمس لا تشعر بدقائق الغبار التي تعدُّ بالوف الالوف على كل قيراط مربع من الكف مثلاً

ثم ان الكون كلهُ مواد متحركة وانما نشعر بهِ بواسطة حركتهِ وذلك انها تهزُّ دقائق اعصابنا المنتشرة اطرافها على الجلد او على مؤخر العين او على غيرها من الاماكن التي تتصل الحركة بها فينتقل هذا الاهتزاز على دقائق الاعصاب حتى يصل الى مراكز الحواس في الدماغ فنشعر حينئذٍ بهِ وندرك معناهُ . وعليهِ فكل ما نشعر بهِ هو الحركة سواء كان في المرئي والمسموع او في الملموس والمشموم والمذوق اذ فينا اجهزة تقبل حركاتها وتنقلها الى باطن الدماغ وتدرك معناها . غير ان هناك حركات أُخرى لا نشعر بها ولا ندركها كالمغنطيسيَّة مثلاً وما ذلك الاَّ لانهُ ليس لها في اجسادنا جهاز عصبيٌّ يتأثر بالحركة المغنطيسيَّة كما يتأثر بحركة الاثير او الهواء مثلاً وقد يمكن ان يكون في هذا الكون انواعٌ لا تحصى من الحركات التي لا تؤثر في اجسادنا مثل الحركة المغنطيسيَّة فلا نشعر بها ولا ندرك وجود مصادرها

أفلا يمكن والحالة هذه انهُ بعد انفصال النفس عن الجسد وانطلاقها من حبسها المادي يزول القصور من حواسها التي يعتورها القصور في الجسد وتصبح قابلة للتأثر

بمؤثرات لا تحصى مما لا يؤثر فيها الآن لحيلولة الجسد بينها وبينهُ فتشعر حينئذٍ بتأثيرها وتدرك وجودها . اما هذه المؤثرات التي تتأثر بها النفس في حياتها الجديدة بعد مفارقة الجسد فلا يعلمها منا احد وعلمها غير مقدور للانسان ما دام في الجسد ولكن مثل الانسان حينئذٍ مثل الذي يولد اعمى من بطن امهِ ثم يفتح الجرَّاح عينيهِ في شبابهِ بعد ان علم ما علم بحواسهِ الأُخرى فان علمهُ بما في الخارج يختلف اختلافاً عظيماً عن علم البصير ثم اذا فتحت عيناهُ وابصر كتاباً مثلاً فانهُ لا يعلم ما هو حتى يلمسهُ بيدهِ ويقرن الصورة القديمة المرسومة لهُ في ذهنهِ عن طريق اللمس بالصورة الجديدة التي ترتسم في ذهنهِ عن طريق البصر . فتتغير الصورة الاولى ويتغير ايضاً ما سواها من الصور. وهكذا يكون بعد الموت فان عين النفس تنفتح بعد انفصالها عن الجسد فترى ما لا يُرى وتدرك ما يفوق طور الادراك على الارض

والخلاصة ان رأي الماديين في الحياة لا ينافي ايمان المؤمنين ولا يضر بحقيقة الدين. انتهى

اولاد اليابانيين

اشتهر اليابانيون بحب اولادهم والميل الى ملاعبتهم ومداعبتهم والتفنن في تسليتهم حتى لقبت بلادهم بنعيم الاولاد . ومما فاقت بهِ مدنهم سائر المدن ان خلقاً كثيراً من اهلها يتعيشون ببيع الحلواء والدمى واللُعَب للاولاد فتراهم يطوفون الشوارع وحداناً وزرافات وعلى كتف كل منهم اناء على موقد يغلي فيهِ شراباً حلواً كالدبس ويدهِ قصب كثير ينفخ فيهِ الدبس فقاعات وابواقاً على صورٍ واشكال تطابق ما يطلبهُ الطفل ويصنعها كذلك بخفة واتقان يسحر بهما عقول الولدان ويسلبهم برهة من الزمان يسيرٍ لا يذكر من المال. او يعجن دقيق الارز ويصنعهُ على صورة ما يختارهُ الطفل من الخضر والازهار والاثمار ويلونهُ بالالوان حتى يشابه الطبيعي منها تمام المشابهة ويبيعهُ للطفل بارخص الاثمان فيلعب بهِ ثم يأكلهُ . وكلما عيدوا عيداً او اقاموا احتفالاً في هيكل من الهياكل جعلوا للاولاد اعظم نصيب من البسط فيهِ فنشروا الرايات والاعلام على شرفات الهيكل وعلقوا اللعب والدمى واكثروا من كل ما يبتهج بهِ الطفل ويسر خاطرهُ. وتسلية الاطفال اول هم لهم في الاحتفال

ومتى صار عمر الطفل مئة يوم اقام والداهُ لهُ الافراح واهدى اليهِ الاقارب والاصدقاء اللعب والملابس واعطوهُ ما تيسر من النقود وانواع الحلواء واذا كان